

## رأى فى تحديد العصر الجاهلى

بمحت فدمه الى . مؤتمر المجمع القومى

صاحب العزة الأستاذ ابراهيم مصطفى بك

عضو مجمع نوابد الأول لانة العربية

يرجم أدبنا فى أصوله الى العصر الجاهلى -- الفاظ لفتنا ،  
وطرق اشتقاقها ، وبناء الجملة ونظم تأليفها ، وأوزان الشعر  
وقوافيه وهيكمل القصيدة

ومثل البادية فى العصر الجاهلى وصور الحياة فيها لم تزل منبثة  
فى تفكيرنا وإيماننا ونظم حياتنا ، وكل تدوير لهذه الحقبة من  
التاريخ يرجع بالإضاءة والكشف على أصول أدبنا وتكوين حياتنا  
وهو عصر غامض حتى لا نعرف مدها ولا نقف على تحديده ،  
ولهذا نرسل الحوادث فى مبعثرة مضطربة غير مرتبطة بأوقاتها  
ويشبهها ستار من الخيال ومن البالغة تقيه فى الحوادث ويضل  
المؤرخون

فحرب « داحس والغبراء » مثلا وهى من أشهر حوادث هذا  
العصر يدها بعض المؤرخين فى أوائل القرن الخامس ، ويراها  
آخرون من حوادث القرن السادس ، ومنهم من يقول إنها امتدت  
أربعين سنة ، ومنهم من يرى حصرها فى عشر هذا الزمن أى نحو  
أربع سنوات

وزهير بن جناب السكبي عاش ٣٠٠ سنة أو ٤٠٠ سنة  
أو ٤٥٠ سنة ، وطى بن أدعاش ٥٠٠ سنة

وتحديد هذا العصر بمالم من التاريخ أول واجب لتصوره  
ولفهم مجرى حوادثه

وآخر هذا العصر معروف محدد هو سنة ٦٢٢ وهو بدء  
التاريخ الهجرى

وإذا نظرنا وجدناه لا يؤرخ بزوغ الدعوة الإسلامية وبدء  
ظهورها ، فقد دعا الرسول إلى دينه سرا وجهرا وأعلن رسالته فى  
الأسواق وهى مجامع العرب وعرض نفسه على القبائل ، وتم ذلك  
كله قبل الهجرة ولم يعد شيء منه نهاية للعصر الجاهلى

وكذلك لا يؤرخ انتشار الإسلام وغلبته على الجزيرة العربية  
فقد كان الإسلام فى المدينة وحدها بل فى جزء منها ، وساطان  
الحياة الجاهلية لم يزل مبسوطاً فى الجزيرة وأرجائها الواسعة .  
والمسلمون أقلية صغيرة ضئيلة كما كانوا أقلية بمكة

ولكن أمير المؤمنين عمر والرب معه لم يتخذوا هذا التاريخ  
اعتباطاً ولا حدوده تحكما ؛ بل رأوه تاريخ تكوين حكومة خدمت  
لها البلاد العربية وشملها سلطانها ونظامها ، وقضت على حالة من  
الفوضى تنهب فيها الأموال والأنفس . والضعيف نهب القوي  
ولم يتخذ تاريخاً حتى كان سلطان تلك الحكومة وطيداً  
شاملاً وأمنها مظللاً وارقاً

وكان تكوين الحكومة عقب تلك الرحلة القاسية السعيدة  
القاصلة وهى الهجرة فسمى التاريخ بالهجرى  
فهذه نهاية العصر الجاهلى قرنت بالهجرة وبتكوين الحكومة  
الإسلامية

فما مبدأ هذا العصر ؟ يحضر المؤرخون به إلى أول الخليقة  
ويجملونه شاملاً لكل ما كان قبل الإسلام وهم بهذا يقررون أن  
العرب أو عرب الشمال على الأخص قد جاءهم الإسلام وهم على  
الفطرة وفى حالة بداءة لم يتصلوا قبلها بحضارة

ونحن مضطرون هنا أن نشير إلى نوعين من الجاهلية :  
جاهلية الفطرة وتكون الأمة فيها بدائية متبررة خشنة العيش لم  
ترث آثار مدنية سابقة . وجاهلية فترة وهى حال أمة كانت لها  
حضارة فقدتها بسلطان من الطائفة أو أحداث البياسة  
وتدهورت فى حياتها درجات وبقى مستكناً فيها آثار ما تمتت به  
من حضارة

وإذا كان مسلك المؤرخين يفيد أن جاهلية العرب هذه كانت  
جاهلية فطرة فإن كل شيء فى التاريخ وفى حياة العرب يشهد  
أنها كانت جاهلية فترة ، جاهلية موقوتة تحمل آثاراً قوية من  
حضارة أو حضارات سابقة

لفهم وبيانهم لم تكن أمة بدائية ولا قريبة من البدائية ،  
وعملهم وهو التجارة - والتجارة الخارجية خاصة - بعيد  
أشد البعد من أن يكون عمل أمة بدائية ؛ وحكمهم للبلاد يوم  
نتعوهها وسياستهم أهلها لا يمكن أن ينهيا لأمة فطرية

والنقبون لا يزالون يكشفون عن آثار حضارات عظيمة في اليمن وشمال الحجاز وبطرة وتدمر والحيرة فهل يقبل أن تقوم هذه الحضارات في نواحي الجزيرة وإخوانهم في جوفها بدائيون غير متحضرين ؟

والآثار تشهد أن تلك الحضارات كانت تجارية، من التجارة ثروتها وربحها، وعلما بقياسها وبقاؤها . والتجارات تأتي من طرف الجزيرة إلى طرف وعمر في مسالكها ، ولا بد لهذه المسالك من الاطمئنان والأمن ، ولا يكون ذلك إلا في ظل حضارة وسلطان قوى

هذه حقائق عليها الطبيعة وتنطق بها الآثار ولكن روايات الأخبار التي بأيدينا تنطلي هذا أو تلمسه لأن رواياتها دونت بمدى صدر من الإسلام وعمل في تدوينها العرب وغير العرب

أما العرب فقد كان لدى أغلبهم أن الإسلام لا يظهر فضله حتى تكبر سببنا الجاهلية وحتى لا يكون في الجاهلية إلا شر قلبه الإسلام خيرا

والإسلام رسالة ووحى ولكن الذين استجابوا له وقاموا به رجال ربهم الجاهلية ، لا بد أن تكون مواهبهم وتجاربهم قد أهدتهم لقبوله أو الترويض به والله أعلم حيث يجمل رسالته

وأما غير العرب فقد حز في قلوبهم ضياع أمهم ودينهم ودولهم ولم يستطيعوا عيب العرب إلا أن ينالوا من جاهليتهم . وجهاد الشموية في هذا كبير ووسائله شتى ظاهرة وماكرة

فلا ينكر متبصر أن الجزيرة العربية شهدت قبل الإسلام حضارات ذات شأن . وعلى هذا الأصل نحاول أن نحدد أول الجاهلية العربية قبل الإسلام وسبيل ذلك أن نعرف آخر حضارة قامت بالجزيرة ونحدد نهايتها فتكون بدء هذا العصر الجاهلي

فإذا اقتصرنا على العصر التاريخي وعلى ما كشف من آثار حضارته ذكرنا حضارة الأنباط وقد كانت في شمال الجزيرة وامتدت من العراق إلى مصر ووصلنا في الجنوب إلى وادي القري وورثت حضارة عمود وأبقت آثاراً خالدة وصمدت للروم في حروب شديدة مريرة . ثم حان حينها فأنتفض أمرها على يد « تراجان » سنة ١٠٦ من الميلاد وورثت مكانتها تدمر ووسع سلطانها الشام ومصر وما بين النهرين والأناضول إلى أترقرة، وجاء يومها غانقضى

حتى رذائل الجاهلية فيها ما يشهد بيدها عن الحياة البدائية - هذا الربا الذي شدد الإسلام في النهي عنه والذي عنى به الرسول في خطبة الوداع ووضعه عن الناس يشهد بمدى أنواعه والتشدد في تحريمه بتفلفه في الحياة الجاهلية - وما كان تقوم المال وتقديره وأرباحه عملا من أعمال الأمم العظيمة

وربا الفضل نوع من الأنجار في الأثمان وفي النقد وعمل من أعمال البرسة ومضارباتها وهو من هلال حضارة غنية مرفهة؛ فقد كان تقدم الفرس بأيدي العرب يملو ويهبط فيما لا تتصارعهم أو هزيمتهم، وكذلك تقدم الروم، فتضطرب الثروة في أيدي الناس وينتشر الفرصة البصيرة النهائون كما يفعل اليوم تجار النقد . وقد عالج الإسلام أصلح علاج - الذهب بالذهب والفضة بالفضة، مثلا بمنزل ، بدأيد

والقرآن يشهد للعرب بحضارات سالفة بائدة - فهم على دين أبيهم إبراهيم، وأرسل إلى العرب من العرب رسل منهم هود وصالح وشعيب ولكل رسالة دين وفي كل دين حضارة

وطبيعة البلاد العربية وموقعها في وسط الدنيا تأتي أن تكون بمثابة عنق الحضارات وأن يعمرها قوم منتمزون متأبدون فطريون .

فقد أقدم عمود التاريخ كانت الجزيرة العربية وبوادها قناة التجارة بين الشرق والغرب من قبل أن تقذف قناة السويس؛ بل إن طبيعة الجزيرة اليوم تعمل في قوة وسرعة لتسترد قناة التجارة إلى مسالك بوادها . ولا يغفل عن ذلك إلا من سد أذنه وأغمض عينيه . فالسيارات القوية العاتية والثورة المريحة ما بين البصرة

وبيروت في يومين ، وللسرعة حسابها في التجارات وفي هذه الأيام خاصة . وقناة السويس تنظر بمخضوع وحسرة - إن لم تكن غافلة - إلى هذا المناس الذي يحاول أن يسترد من بين يديها الثروة والنفى والمجد - والمصحارى كالبهار تكون عازلة حتى إذا مهدت وذلك كانت سبيل القرب وهزة الوصل . والذين

اجتازوا البوادي العربية ورأوا طبيعتها الحجرية لالرمية دهشوا لهذه الفجاج التي مهدتها الطبيعة وسوتها يد الله . وقد شهدت عشرات من الرجال مهدوا بأيديهم أميالا من الطرق لمريرها

سيارات الملك ابن السعود وسيارات جنده وكل ما عملوا أنهم كنسوها من صنار الحجارة التي تسمى عندهم « بالجرابل »